الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

عمر فينيقية بمصر

اتيانها بالآثار الناطقة

آثار جبيل

اجمع المؤرخون وعلماء الآثار على ان علاقة فينيقية بمصر انما هي علاقة تاريخية قديمة العهد قائمة على اساس راسخ من المصالح المتبادلة بدليل ما وجد في غير مكان اثري من ساحل لبنان ولا سيما في جبيل المدينة الفينيقية الشهيرة من التحف الاثرية المهداة الى ملوك المدينة من فراعنة مصر وفي جملتها الآنية الخزفية التي استخرجت من مدفن اكتشف فيها سنة ١٩٢٢ وقد نقش عليها اسم امنمحات الثالث وخليفته (١٧٩٢ — ١٨٠٠) امنمحت الرابع . ومنها تحف اخرى وجدت في برين من القبور الخمسة التي اكتشفت هناك لامراء جبيل الذين عاصروا الفراعنة في تلك الحقبة وعلى هذه التحف كتابات هيروغليفية متقنة. ومما قاله المسيو مونته استاذ علم الآثار المصرية في جامعة ستراسبورج واحد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي في مصر وهو الذي عهد اليه معهد الآداب العلمي في باريس في التنقيب عن الآثار في جبيل : ان الآثار التي عثر عليها هناك تدل على ان لتاريخ جبيل علاقة وثيقة بتاريخ مصر ولا سيما من الوجهة الاقتصادية فان الفراعنة كانوا يعولون على جبيل في استيراد ما لا تنتجه ارض مصر من الاخشاب الصلبة والمواد الاولية الضرورية. والكتابات التي وجدت تدل على انهم جردوا الحملات منذ اربعة آلاف سنة في طلب هذه المواد ولا سيما خشب الصنوبر والارز والجوز والسنديان والخرنوب لانهم كانوا يصنعون منه الزوارق المقدسة وتوابيت الكهنة والاسوار الخشبية التي كانوا يقيمونها امام الهياكل . ويستوردون من جبيل السفن القوية التي امتاز الجبيليون بصنعها كما جاء في التوراة. ويستجلبون منها القطران لحفظ المومياات والقار لتحنيط الاجسام لاعتقادهم ان القار يجعل الاجسام الاهية غير قابلة للفساد. ومن اجل ذلك كانوا يطلون به تماثيل الملوك انفسهم كما يرى في تمثالي توت عنخ آمون وتمثال اوزيريس . والآثار المستكشفة تشير الى ما كانت مصر تعلقه من الاهمية على علاقاتها

الحسنة مع فينيقية ولا سيما مع جبيل . ويستدل من كتابة نقشت على مسلة موجودة في متحف تورينو بايطاليا ان سنفرو من السلالة الرابعة قصد الى جبيل وأخذ منها سفينتين مصنوعتين من خشب الصنوبر طول الواحدة مائة ذراع . وقد وجد في المكان الذي اقيم عليه هيكل ربّة جبيل عدة اوانٍ بينها تحف مهداة الى ملوك جبيل من بابي الاول وبابي الثاني وميكارينوس وهو الذي شاد احد الاهرام الكبيرة اي ان تاريخ هذه التحف يرتقي الى عهد السلالات المصرية الثلاث الاولى

ولم تقتصر علاقات مصر وجبيل على الوجهة الاقتصادية بل تناولت المسائل الدينية ايضاً بدليل ان المصريين اقاموا هيكلاً لآلهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي استكشفت . ويستدل من التماثيل والنقوش في هذا الهيكل على ان بناءهُ يرتقي الى عهد السلالة المصرية الرابعة والى ما قبلها . وفي ذلك دليل ايضاً على ان الفراعنة لم يكرهوا الفينيقيين على انتحال ديانتهم . وقد وجدت كتابة منقوشة على آنية مقدمة الى الهيكل المشار اليهِ هذا تعريبها : « من اوناس المحبوب من الاله الشمسي الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انهُ محبوب من الاله المحلي اله جبيل . واوناس يزعم انهُ محبوب من هذا الاله كما هو محبوب من الشمس الاهة مصر الكبرى التي يمثلها هو . وفي ذلك دليل على ان مقدم هذه الآنية كان سائداً في جبيل كما كان سلطاناً على مصر . واما بابي الاول فانهُ رفع نفسه الى مقام اله جبيل عملاً بما كان متبعاً في العصور الخالية من اتخاذ الملوك بمنزلة آلهة متجسدة تحمي المدينة وبمنزلة الامثلة الحية للاله امون . ولذلك كانت تماثيلهم تزان برسوم ترمز الى سلطتهم السامية . والآثار التي وجدت في هيكل عشتروت المجاور لهذا الهيكل وذكره لوقيان تدل على مقدار السيادة التي كانت لفراعنة مصر على تلك المدينة ، وهذه الآثار وجدت تحت بلاط الهيكل . وهي تدل على انهُ شيد ما بين القرن الخامس والعشرين والقرن التاسع عشر قبل المسيح اي بين عهدي السلالة السادسة والسلالة الثانية عشرة . وقد تهدم مراراً وكان الرومان آخر من جدّد بناءهُ . على ان عهد بابي الاول في جبيل لم يكن زاهراً ولذلك اعرض الجبيليون عنهُ دلالة على زوال هيبة الفراعنة في تلك الحقبة من ارض الفينيقيين

واظهر ما يستوقف الانظار من الكتابات التي عثر عليها المسيو مونته ذكر ادونيس المتواتر في تاريخ جبيل مقروناً بذكر عشتروت . وقد وجد بين الآثار التي عثر عليها ملفا عليهِ حروف هيروغليفية يستدل منها على انهُ لاحد ملوك جبيل وقد ورد فيهِ اسماء الهة نيغا وهي الالهة التي تشير اليها الكتابات المنقوشة على الاهرام . وعثر في جبيل على رسم محنور يمثل اله البلاد والاهتها يعبدها فرعون . وفي ذلك دليل على ان الفينيقيين كانوا يعبدون الهاً والاهة اي ذكراً

وانني يظهر ان لها علاقة بادونيس وعشتروت وقصتهما مماثلة لقصة اوزيريس وايزيس الواردة في الكتابات الهيروغليفية بمصر كما قال فلوطرخس فان بطل الرواية في « قصة الاخوين » يشبه ادونيس ويسكن وادي نهر ابرهير يموت فيبعثه اخوه ثم يحول الى شجرة مثل اوزيريس وينقل الى مصر

وقد ألقى المسيو مونته في المعهد العلمي الفرنسوي في القاهرة في ٩ يناير سنة ١٩٢٣ خطبة قال فيها انه كان في جبيل اله الشمس والاهان آخران يحرسان المدينة وان فرعون مصر اعترف جهراً بانهُ صديق وابن هذه الآلهة كما انهُ ابن الاله « رع » . ومعزى ذلك ان هذا الملك ما كان يستطيع ان يطأ ارض فينيقية من غير ان يعترف بالاله . والخلاصة ان مصر اضطرت بحكم الحاجة الى انشاء علاقات ودية مع فينيقية لتتمكن من الحصول على ما كانت تفتقر اليهِ من محصولاتها ولاسيما الارز والصنوبر والسنديان والقار والقطران . وبسبب هذه العلاقات عرف المصريون ديانات الفينيقيين فنقلوا بعضها الى بلادهم واتحلوها

وقد نشرت التيمس الانجليزية رسالة للمسيو مونته ألقى فيها على خلاصة اعماله الاثرية في جبيل ومما جاء في هذه الرسالة ان ذكر جبيل ورد في ما كتب عن آلهتها التي كان المصريون يعبدونها او في ما كتب عن المحصولات والبضائع التي كانت مصر تستوردها من فينيقية نظير خشب الصنوبر والعرعر والارز والخرنوب والقلفونة والقار . واخذ المصريون عن الجبيليين صناعة بناء السفن لانهم كانوا في حاجة اليها لجلب البخور من بلاد العرب . ووجدت صورة بارزة تمثل احد الفراعنة ساجداً لاله جبيل وإلاهتها وعثر على معبدين احدهما مصري والآخر فينيقي وكان امام الاول اربعة تماثيل كبيرة وفي داخله تمثال للآلهة يكاد يكون سليماً . أما المعبد الفينيقي فلم يكن باقياً منه سوى البلاط المرصوفة به أرضه وقد وجدوا فيهِ كثيراً من التماثيل والحلي والكؤوس والاسطوانات واكثر الكؤوس كان مصرياً وعلى بعضها اسماء بعض الفراعنة نظير ميتارينوس واوناس وباني الاول وباني الثاني . وعثر على غرفة تحت الارض فيها ناووس حجري ضخم يحوي تحتهُ بينها كأس من الشبح مطرَّقة بالذهب وقد نقش عليها اسم امنمحت الثالث الذي ملك على مصر من ٨٥٠٠ الى ١٨٠٠ ق.م. وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ عثروا على دهليز صاعد من هذه الغرفة وجدت فيهِ كتابة هيروغليفية جاء فيها: «ان زو أحد امراء جبيل لم يرد ان ينشىء لنفسه مدفناً يدفن فيهِ وحده بل اراد ان يدفن مع والده ليرى احدهما الآخر كل يوم في العالم الثاني » . وعثروا في غرفة أخرى تحت الارض على كثير من الآنية الخزفية المطلية بينها كأس مصرية مصنوعة من حجر رمادي اللون وهي بديعة الصنعة وعلى غطائها كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «من الاله الكامن الحي ان امنمحت الشمس الى خدمهِ دائماً» والمقصود بالخدم أهل جبيل . وحفة جواهر من الشبح على قواعد من الذهب وغطاؤها من الذهب

والسج وحوله أطار ذهبي منقوش على الاسلوب المصري وفي وسط الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «الآله الحي الكامل سيد البلادين ملك مصر العليا والسفلى معخر ورع المحبوب من تم الله هيو بوليس المعطاة له حياة ابدية كالشمس » . ومعخر ورع أحد الاسماء التي كان يعرف بها امنمحت الرابع الذي ملك على مصر من ١٨٠٠ الى ١٧٩٢ ق.م. وهو الذي ارسل هذه الهدية الى ابن ملك جبيل الذي انشأ الدهليز بين مدفن أبيه ومدفنه وقد ورد اسمه في كتابة هيروغليفية على سل منتفخ الاوداج يلتف حول مخصرة من البرونز وهذه ترجمتها: « صنع للامير ابي سخيمو المتوفي — امير جبيل ايب سخيمو ابي المعاد الى الحياة » .وفي ذلك ما يدل على ان الفينيقيين كانوا يستعملون الكتابة الهيروغليفية قبل ان استعملوا الكتابة المسمارية في مراسلاتهم السياسية بثلاثة قرون ولكن القلم الذي كانوا يكتبون فيه وقتئذ اقرب الى الهيروغليف الحثي منه الى الهيروغليف المصري

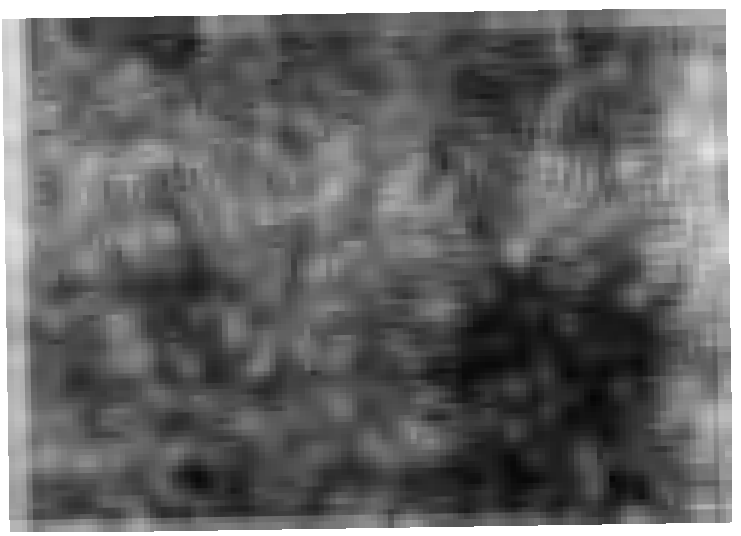

طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

وعثروا في مدفن ثالث على تابوت خشبي مزخرف بالقيشاني والذهب وعلى آنية من الخزف بينها مخصرة من البرونز وطوق من الذهب بديع الشكل يماثل الطوق المصري المؤلف من عقود لؤلؤ معلقة بين رأسي باشقين من الذهب مع هذا الفرق بين الطوقين وهو ان العقود ابدلت بصقر باسط جناحيه ويحمل في كل من رجليه خاتماً ذهبياً يرمز الى تجدد الحياة وخلودها . وهناك مدفن رابع عثر فيه على آنية خزفية مزخرفة مع قطعة من انا البستر نقش عليه بالهيروغليفية ما ترجمته . « الى نفس الامير الشريف شيخ الشيوخ أمير جبيل المعاد الى الحياة»

وهناك كثير من التحف الأثرية الثمينة وجلها آتية من الفخار وشارات منكية واسلحة عليها كتابات هيروغليفية مهداة من الفراعنة الى ملك جبيل وحرار ودلاء وتحوت وانطاق من الخزف والبرونز وآتية من الرخام عليها كتابات هيروغليفية وقطعة ذهبية تمثل مرتين الملك جالساً امام العقر وهو شعار فراعنة مصر وسدانية ذهبية وحجارة كريمة وخاتم من الذهب وخنفسة من الحبشة وعقود من اللؤلؤ والبلور وسوارات ذهبيان وصولجان من خشب وذهب عليه شعار من الفضة يمثل الشمس وسارح من البرونز بقبضة ذهبية وخنجر ذهبي وعصا من ذهب وخشب وصولجان من البرونز وكما ان احداها من ذهب والاخرى من حجر وطاسة من الفضة وانا من العظم فيه مسامير من الذهب ورصائع ذهبية وقبضات اسلحة

وعثر بالقرب من جبيل على مدفن يرتقي تاريخه الى عهد رعمسيس الثاني في القرن الثامن ق.م. وجد في أحد غرفه فاووس عليه كتابة فينيقية هي اقدم ما وجد من نوعها حتى سنة ١٩٢٥. وقد اكبر علماء الآثار قيمتها لما يتوقعون ان يكون لها من الشأن في تاريخ الاقلام الفينيقية التي لم يستطيعوا الى اليوم ابداء رأي فاصل فيها وهذا علاوة على ما ينتظر ان يستخرجوا من الكتابات التي وجدت في هذا المدفن من الحقائق التاريخية الهامة التي تصلح اساساً لتعيين العلاقات القديمة بين مصر وفينيقية تعييناً جليًّا واضحاً

وقد عثر احدهم في جوار جبيل على تمثال ذهبي صغير طوله ٨ سنتيمترات يمثل امرأتين معريتين واقفتين وعاريتين من الملابس ويبدو ان منهما منبعطتان على ركبتيها وقد برزت اثداؤهما وفي موضع الحلمة من كل ثدي حجر كريم وهو مرتكز على قاعدة تدلت من اسفلها حلقة مربوط بها حجر من السيلان . وهذا الحجر معروض الآن في المتحف اللبناني

وفي شهر مايو سنة ١٩٣٢ نشر مدير المتاحف في لبنان بياناً باكتشاف عثر عليه في جبيل من آثار الاقدمين والتحف الأثرية النادرة فقال ما يؤخذ منهُ ان اعمال الحفر وصلت الى الهيكل الفينيقي الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الثامن عشر قبل المسيح وقد عثروا فيه على آثار ثمينة هي اقدم ما اكتشف من نوعها حتى الآن . من هذه التحف فأس من الفضة وثلاثة فؤوس من الذهب الخالص مثلث على [illegible] وكلها في غاية الدقة لم يعرف لها مثيل في تاريخ فينيقية ونصال وقبضات من الذهب يتركب منها ثلاثة خناجر واحدى هذه النصال مزدانة برسم رجل فينيقي يركب حماراً وقد تقدم امامه يسوقون سعادين وأسداً وماعز. وقبضة ذهبية كسرجفت دقيقة الصنع. وعدة اسطوانات ذهبية وفضية صغيرة دقيقة الصنع. واربعة تماثيل من البرونز المطلي بالذهب محفوظة حفظاً جيداً واكبرها يبلغ طوله ٣٥ سنتيمتراً ويمثل شخصاً واقفاً وعلى رأسه قبعة كالبلوطة . وشخص يمثل ابي الهول — السفنكس — طوله ١٢ سنتيمتراً من الشبه (البرونز) المطلي بالذهب »

آثار صيدا وصيداء

وهناك تحف اثرية اخرى بالغة منتهى الجمال والدقة في الصنعة وجدت في السنوات الاخيرة سواء كان في جبيل او في سواها من المدن الفينيقية اللبنانية ولا سيما في صور وصيداء حيث وجدوا عدة نواويس حجرية ورصاصية عليها نقوش جميلة وصور حيوانات وحشرات ممثلة بأشكال متنوعة . وهناك تحف اثرية اخرى بينها آنية من ذهب عليها كتابة هيروغليفية وثلاثة تماثيل وجدت بين صور وصيداء احدها محطم والثاني بشكل جذع او مذبح للتضحية والثالث بشكل سمكة وبالقرب منها تابوت من الرصاص موضوع في ناووس من الرخام منقوش عليه رسم ابي الهول . ووجدوا في قرية صانوي بجوار صيداء اربعة نواويس من المعدن وناووساً من الرخام وجرتين من الخزف عليها كتابات هيروغليفية وزهرية خزف وقطعتين من الذهب تمثلان صولجاناً وعدة قطع ذهبية اخرى . وعثروا في قرية كفر جرة التابعة لصيداء على مدفن قديم فيه كثير من التحف الاثرية الثمينة بينها آثار مصرية ترجع في تاريخها الى القرن السادس ق. م. وهناك تحف اخرى وجدت في مدافن فينيقية في تلك البقعة يرتقي عهدها مع آثار كفر جره الى عصر القضاة او الكهنة اي الى الحقبة الفاصلة بين عهدي الاسرتين المصريتين الثانية عشرة والثامنة عشرة وتتناول خمسة قرون تبتدىء في القرن الثامن عشر وتنتهي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبين الآثار التي وجدوها هناك تحف نفيسة مماثلة للتحف التي عثروا عليها في مدافن الاسرائيليين في فلسطين وبينها كثير من الجرار من حجر الجشت والحجر الكلسي . ووجدوا هناك مدفنين آخرين يرتقي تاريخهما الى عهد الكهنة وعثروا فيهما على رياش فاخر في جملته آنية خزفية وآنية من البرونز وخناجر ونبوس ونصال وجرار وطابع بشكل عمود وغير ذلك

ومما لا ريب فيه ان الآثار القديمة التي لا تزال مدفونة في هذه المنطقة الساحلية لتضارع في عظم شأنها آثار جبيل ولو ان هذه المدينة ذات مكانة خاصة للصبغة الدينية التي كانت لها في ما سلف من الدهر . ونحن في غنى عن القول ان ما استكشف الى اليوم من آثار الاقدمين ولا سيما آثار الفينيقيين في تلك البقعة الساحلية الممتدة من صور الى اللاذقية انما هو عشر معشار ما هو مدفون في ارضها من الكنوز الاثرية التي لو عني باستخراجها وادخارها كلها في المتحف الوطني اللبناني الذي انشىء خصيصاً لها لكانت ثروة عظيمة للبنان وأثراً تاريخياً جليلاً يحدث العالم بحضارته القديمة الممتازة التي كان المسيو مونته آخر من قال فيها : «انها تضارع حضارة مصر وكلدية »